هيتشينز والعراقيون.. نحن والسوريون

■ فاضل السلطاني

إذن رحل كريستوفر هيتشينز، الصحافي والكاتب" ذو اللسان السليط" وارتاح كثيرون من معاركه الثقافية والفكرية والسياسية، التي قد تكن الأكبر في السنوات العشرين الأخيرة، ليس فقط في وطنه الأم بريطانيا، التي تركها"هربا من نظامها الطبقي"، أو في وطنه المتبنى أميركا، وإنما في الساحة الدولية. ونقول الساحة بالمعنى الحقيقي، وليس المجازي. كان العالم كله، وخاصة العالم البائس، الفقير، المبتلى بالقمع والحروب، ساحة معركته، وخاصة العراق. كان هيتشينز من المثقفين الأوروبيين اليساريين القلائل، الذين وقفوا إلى جانب الشعب العراقي. وكان يقول لأولئك الذي راهنوا على صدام حسين "لأنه عدو للإمبريالية الأميركية!" بأن " حكم صدام حسين سيزول ذات يوم. وفي هذا اليوم، نريد أن ننظر في عيون العراقيين، ونقول لهم: نحن كنا مهتمين بأمركم أيضاً". كان يسخر من هؤلاء المثقفين " الذين يذهبون إلى أسرتهم وهم يرددون لتبرير مواقفهم السلبية المخجلة: ماذا نستطيع أن نفعل لصدام حسين أو سلوبودان أو طالبان؟". وما أكثر هؤلاء المثقفون، غربا وعربا، في الأمس واليوم، الذين يتفرجون وما يزالون يتفرجون على المذابح التي جرت و تجري أمام أعينهم، كما حدث في العراق بالأمس، ويحدث الآن في سوريا، بشكل معكوس هذه المرة، إذ ها هي حكومتنا تتواطأ مع الجلاد، وها نحن صامتون عن مجازر الجلاد، متناسين أن حكم بشار الأسد، كحكم صدام حسين، لا بد من أن يزول ذات يوم، قرب ذلك اليوم أم بعد. لكننا حينئذ لا نستطيع أن نقول للسوريين، ونقول لهم: نحن كنا مهتمين بأمركم أيضاً". كان يسخر من هؤلاء المثقفين " الذين يذهبون إلى أسرتهم وهم يرددون لتبرير مواقفهم السلبية المخجلة: ماذا نستطيع أن نفعل لصدام حسين أو سلوبودان أو طالبان؟". وما أكثر هؤلاء المثقفون، غربا وعربا، في الأمس واليوم، الذين يتفرجون وما يزالون يتفرجون على المذابح التي جرت و تجري أمام أعينهم، كما حدث في العراق بالأمس، ويحدث الآن في سوريا، بشكل معكوس هذه المرة، إذ ها هي حكومتنا تتواطأ مع الجلاد، وها نحن صامتون عن مجازر الجلاد، وفنزويلا.

جسّد هيتشينز مفهوم المثقف الملتزم، في وقت أصبح فيه هذا المفهوم مدعاة للسخرية بعد أن قتلته الإيديولوجيا العمياء حين حشرته ضمن إيديولوجيا ضيقة، مفرغة إياه من معناه الإنساني الشامل، أي الوقوف مع قضية الحرية، والبشر المعذبين في الأرض، وحق الإنسان في اختياره مهما كان نوع هذا الاختيار. وقاده هذا الالتزام الإنساني المجرد إلى الصدام مع شخصيات مثل كيسنجر، الذي وصفه بـ" الكذاب الكبير"، والأم تريزا، التي اتهمها بأنها تزرع الأوهام في عقول الفقراء من خلال "أعمالها الخيرية". كذلك دخل في نقاش شهير مع توني بلير، بعدما اعتنق الكاثوليكية. وأجمع المراقبون آنذاك أن بلير يحتاج إلى وقت طويل قبل أن ينسى هزيمته أمام هيتشينز. أما معاركه الأشهر، فكانت مع رجال الدين. كان هيتشينز يؤمن بأن كل الأديان التي تتحول إلى مؤسسات ، ومنها الأديان الأرضية، تبعث على اليقين في عصر متغير لا يقين ولا ثبات فيه، مجهضة بذلك التفكير الإنساني الخلاق.. وزاد موقفه هذا تشددا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فهاجم الفاشية: التي ترتدي "لبوساً إسلامياً"، وهاجم الكنيسة أيضاً، متهما إياه باللاعقلانية، وعدم التسامح، وحتى بالعنصرية. وبقي ثابتا على مواقفه حتى أيامه الأخيرة. لقد تصور بعض رجال الدين إن هيتشينز، في محنة مرضه الذي لا شفاء منه، قد يضعف ويندم على كتاباته وآرائه ، لكنهم لم يسمعوا منه، وهو على فراش الموت، سوى التهكم من قناعاتهم.

يقول عنه سايمون هوغرت، كاتب العمود في جريدة "الغارديان البريطانية":" لم أعرف أحدا أكثر قراءة من هيتشينز، وأغزر منه كتابة أيضا". أما الروائي المعروف أيان مكيوان فكتب في الجريدة نفسها أن شغف هيتشينز بالقراءة، وكتابة الملاحظات، والنقاش الفكري العميق، الذي اشتهر به طوال حياته، لم يفارقه حتى وهو يعيش أيامه الأخيرة، وعلى مشارف نهاية معركته الخاسرة، هذه المرة، مع السرطان، الذي لم يسلم هو أيضاً من تهكمه:"مرضي متوقع ومبتذل حتى إنه يصيبني بالملل".

حوار الثلاثاء

المجتمع لم يتغير في جوهره على الرغم من الادعاءات العريضة في التغيير

عبد الكريم كاصد: مستقبل الشعر لا يخضع للنبوءات

أمستردام- عدنان أبو زيد:

قال الشاعر العراقي المعروف المقيم في لندن عبد الكريم كاصد في حوار مع " المدى " وهو يستعد لتوقيع مجموعة من كتبه الصادرة عن مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر في القاهرة ، في بداية شباط العام ٢٠١٢ : إن الكتب المعنية هي (باتجاه الجنوب شمالا)، وهو كتاب في السرد الرحلي ، يتضمن أسفاره العديدة إلى العراق وبلداناً أخرى . وكتاب (غبار الترجمة) وهو كتاب يتناول فيه الشاعر ترجمات إليوت وشكسبير إلى اللغة العربية ، وكتاب (هجاء الحجر) وهو مجموعة شعرية للشاعر ، وكتاب (البحث عن صورة هيغل) وهو مختارات شعرية للشاعر الروماني مارين سوريسكو ، وكتاب (أفكار موجزة عن الخرائط) ، وهو كتاب لمختارات شعرية للشاعر الجيكي ميروسلاف هولوب ، إضافة الى كتاب (ربة الشعر هي الكومبيوتر) للشاعر الويلزي آر. إس . توماس.

وحول تأثيرات الربيع العربي في الشعر ، أوضح كاصد أن "الوضع العربي لا يمكن أن يستمر على ما هو عليه الآن، و لا يمكن أن يهاجر من جديد ملايين الناس كما حدث في عراقنا الذي أبيدت فيه قوميات كاملة وامتلأت رحابه بالمقابر... لا يمكن لأجيالنا القادمة أن تقبل ذلك.. هذه الأجيال التي انفتحت على آفاق لا يمكن حجبها حتى بقوة الأنظمة. لا يمكن حجبها بالقوة شطرنج" عبد الكريم كاصد: من الحقائب إلى رقعة شطرنج" "لكنني مع ذلك لست يائساً لأنّ عزلتنا وعدم تجاوبنا مع التطور الحاصل في العالم يعني انقراضنا. لا يمكن أن يستمر الوضع العربي على ما هو عليه الآن... لا يمكن أن يهاجر من جديد ملايين الناس من بلد تعداد سكانه لا يتجاوز العشرين مليونا كما حدث في عراقنا الذي أبيدت فيه قوميات كاملة وامتلأت رحابه بالمقابر... لا يمكن لأجيالنا القادمة أن تقبل ذلك.. هذه الأجيال التي انفتحت على آفاق لا يمكن حجبها حتى بقوة الأنظمة."

× كتب كاصد مختصراً مأساة العراق: "على بعد أمتار من النهر/ يجلس أسد بابل/ لا مصاطب تحيط به ولا أطفال/ لا جنائن ولا أبراج/ وحين يمرّ به الناس ولا يلتفتون/ يهزّ رأسه أسفاً/ مردّداً جملة واحدة/ لا يسمعها أحدٌ/ وإن سمعها لا يعيرها انتباهاً/ أنا أسد بابل/ أنا أسد بابل/ .. ما الحيز الذي يحتله العراق في ذاكرة كاصد الشعرية؟

– العراق والبصرة لم يعودا ذاكرة فحسب، بل هما فعل يومي من خلال زياراتي المتكررة إليهما. كتبت في السنتين الأخيرتين ديوانين اعتبرهما بعضُ الأصدقاء أنهما من أفضل ما كتبت هما: البصرة على مرمى حجر، والفصول ليست أربعة، أحدهما وهو الفصول طبع باسم (صبخة العرب) وهو الآن مهيأ لطبعته الثانية، والآخر (البصرة على مرمى حجر) هو الآن تحت الطبع، ولديّ مجموعة أخرى بعنوان (عراقيا) لم أنشرها بعد.

البصرة والعراق منجم شعريّ لا ينفد.. منجم شعريّ للروح لما فيهما من احتدام وتناقض وموروث واحتمالات شتى لا تنقطع، إضافة إلى ما ينتظرهما من مجهول هو محرك الشعر الباحث عن المجهول دوماً.

إذا كانت قصيدتي هذه تختصر مأساة العراق حقّاً، فهذا يعني أن ما يحتله العراق في ذاكرتي الشعرية هو من الحضور ما يجعل شعري نصباً لهذه المأساة. هذا أجمل مديح أسمعه عن قصيدتي وسأكتفي به ردّاً على سؤالك.

الأمية والشعر الشعبي

× الاحتفاء الكبير بالشعر الشعبي من قبل الفضائيات ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية، ربما يدل على أمّية شعرية تطغى على المشهد الاجتماعي العراقي. ما الأسباب التي تعتقدها وراء طغيان المدّ (الأميّ) الشعري على الحياة، نستثني من ذلك بالطبع قصائد "شعبية" تحمل روح الإبداع واقتناص الفكرة الجميلة؟

– ما يستوقفني في هذه الظاهرة لا أسبابها بل دلالاتها التي تعني شيئاً واحداً هو أن هذا المجتمع لم يتغير في جوهره، على الرغم من كلّ الادعاءات العريضة في التغيير، وما نلاحظه هنا هو افتراق هذا الجوهر عن شكله إلى حدّ المفارقة التي هي أقرب إلى الكاركتير: واقع يرزح تحت ثقل الطائفية والعشائرية يتخذ له أشكالاً مبرقشة شبيهة بثوب المهرج: أشكال برلمانية هي في حقيقتها وجه آخر للتخلف ، أحزاب هي حشود طائفية وقومية والشيء الغائب الوحيد هو ما يدّعيه الجميع: الديمقراطية وليس الإعلام والشعر بمعزل عن هذه الفوضى ولاسيما إذا ما أدركنا الفهم القاصر للشعر باعتباره إعلاما وليس كالشعر الشعبي قادرا على التعبير عن هذا الإعلام بتاريخه الحافل في تأدية مثل هذا الدور، ولعلّ الشعر الآخر ليس بعيداً عن هذه الظاهرة في حشود مهرجاناته المتواصلة التي يحتشد فيها الشعراء دوماً ويغيب عنها الشعر. لكن لا يعني هذا تقييماً عاماً فثمة استثناءات كثيرة وشعر حقيقيّ يكتب في العامية والفصحى له رموزه ونماذجه الرائدة.

ولائم الحداد

× كتب عن إصدارك الأخير (ولائم الحداد): بين مجموعاته الشعرية كلّها تطفح هذه المجموعة بالذات بروح مختلفة" .. كيف يجسّد كاصد هذا الاختلاف؟

في هذه العبارة ثمة تقييم ومحبة بلا شكّ، لكنني أودّ أن أضيف أن كلّ مجموعة لديّ لا بدّ من أن تختلف عن الأخرى ليس ولعاً بالاختلاف وإنما لاختلاف ما مررت به من تجارب عديدة تكاد تكون متناقضة حتى في جوهرها أحياناً لا في الحياة وحدها وإنما في توجهي الثقافي أيضا. لا أظنّ أن ولائم الحداد هي المختلفة وحدها فكلّ مجموعة لديّ هي محاولة أخرى في استيعاب تجاربي الحياتية والثقافية جمالياً منذ (الحقائب) التي عكست تجربتي الأولى في الغربة، مروراً بـ (النقر على أبواب الطفولة) الذي عكس أخص تجاربي في الطفولة، وانتهاء بالمجموعات العديدة الأخرى التي شهدت بلداناً وأقواماً شتى وتجارب هي من الخصوصية ما يجعلها أقرب إلى الغرابة والوهم: رحلتي عبر الصحراء، منافي العديدة، موت أحبائي، ..إلخ

× مازالت الحداثة مصطلحاً إشكالياً وغامضاً، وتحت يافطتها يروج البعض لحداثة خارجة على المألوف في مصطلح الفكرة ، والقيم، واللغة، كيف يصف كاصد الحداثة بحكم تجربته الشعرية الطويلة؟

تفترض الحداثة أساسا الحديث عن التاريخ والمراحل الزمنية ولكنها قد تعني في الوقت نفسه الانعتاق من هذا التاريخ ومن أسر الحاضر الفعليّ، ففي أوروبا اتصفت الحداثة بقطيعتها مع الماضي، وازدرائها للحاضر. لذلك فهي تحمل معها في داخلها هذه النقائض التي قد تلتقي وتفترق متجاوزة التاريخ والمراحل ذاتها، وليس ثقافتنا العربية بمعزل عن تأثيرات هذه الحداثة ونقائضها بحكم وضعها التاريخيّ الخاص الذي يجعلها في موضع المتلقي الذي يحمل بدوره نقائضه الخاصة وليدة التاريخ الطويل من التقاليد المتراكمة التي يصطدم بها حاضرنا يومياً.

أن تكون في أدبك تاريخياً ومنعتقاً من أسر التاريخ، أن تكون امتداداً للماضي وخارج أسره، أن تتمثل الواقع وتتجاوزه، في آن واحد، ربما هذه هي بعض سمات هذه الحداثة التي تشوبها الغرابة أحياناً وهذا جزء من جوهرها الذي تتعدّد أشكاله، مراوحة بين الألفة والغرابة في الأساليب ووجهات النظر. ولعلّ القليلين هم من يستطيعون الخروج من هذه النقائض بجناحين قويين. وبسبب هذه النقائض التي من الصعب إدراك ما يفرّق بينها، تمتلئ فترة الحداثة بالأوهام والكتابات التقليدية أو التي لها شكل الحداثة وهي أبعد ما تكون عنها. وقد يكون الأمر أشدّ تعقيداً حين تعتمد الحداثة الأشكال القديمة للتعبير جنباً إلى جنب مع أشكالها الجديدة المتولدة، أما أشكال الحداثة التي تتضمن مضامين قديمة فهي ليست شائعة في الفن وحده بل في الحياة أيضاً، وهذا ما نتلمسه يومياً في واقعنا مما يدعونا ربما إلى نعتها بالأساطير على حدّ تعبير رولان بارت.

الشاعر والسياسة

× سياسياً، هل يتفاءل كاصد في مجريات الأحداث العراقية؟

– ينبغي النظر في مجريات الأحداث العراقية خارج مفهومي التفاؤل والتشاؤم. ثمة صراع الآن ليس من السهل التنبؤ بنتائجه لاسيما أنّ الصراع يتّخذ أشكالا تعبر عن واقع هو في أوضح تجلياته خبث عبر تاريخنا الحديث. لم تشهد الطائفية حضوراً لها كهذا الحضور الذي يفصح لا عن جوهره حسب، بل ارتدّ إلى أبسط أشكاله بروزاً في التاريخ، بعيداً عن أيّ أثر حاضر. إنه ينتسب إلى عصر ماض .. عصر المماليك في التاريخ العراقيّ، والاختلاف الوحيد ربما هو في تمركز ذلك الحكم إلى حدّ الانفصال الكامل عن الهامش، وهامشية الحكم الحالي إلى حدّ فقدان أيّ مركز له حتى، وإن ادعي عكس ذلك، إذ أصبحت السلطة في كل مكان، لذلك فهي غائبة وفاقدة لهويتها: إنها قادرة أن تكون كلّ شيء ولا تكون شيئاً: إنها المؤسسة ونقيضها، الفكر ونقيضه، القانون والميليشيا، بل إنها توجد حتى في ما يعارضها أيضاً.

إن استمرار الوضع على هذه الحالة سيولد شكوكاً وريبة وتهشيماً للعلاقات الاجتماعية التي قد تتخذ أشكالاً مشوهة ليست هي أشكالها الحقيقية في الصراع الدائر في الواقع وفي هذا تغريب لا للعلاقات الاجتماعية والواقع وحدهما، بل تغريب أيضاً لأخص ما في جوهر الإنسان من هوية وفتح الطريق واسعاً أمام المنتفعين الذين لا يرون أمامهم إلاّ مصالحهم التي ستعود على الناس بالخراب.

الحنين إلى الوطن

× كاصد الغارق في الحنين إلى الوطن ومسقط الرأس، كيف رأى البصرة حين زارها ، كيف تذوق الناس، الشعراء، النخيل وهل انتابته رغبة إنهاء الصلة مع الغربة، والإقامة في العراق ؟

– يمكنك القول إنني شبه مقيم في البصرة فقد تكررت زياراتي إليها كثيراً في السنوات الأخيرة. لقد زرتها مرتين هذه السنة وسأزورها ثالثة بعد أسابيع، وفي كلّ زيارة ثمة ما يقربني أكثر إلى مدينتي من جديد وكأننا نستعيد ما فاتنا منذ ثلاثين أو أربعين عاماً. حين تشعر أنك جزء من المدينة لا عابر يصبح الافتراق انتظاراً مؤقتاً في عبورك إليها، محطة لا منفى تفصلك فيه عن وطنك آلاف الأميال.

كانت البصرة ناساً ونخلاً وشعراء ومازالت ناساً ونخلاً وشعراء تتناوبهم مسرات وأحزان تسرك أيضاً وتحزنك وهي في الحالتين تلك المدينة التي اجتازت بشراً وأزمنة وحروباً من دون أن تكون مدينة أخرى لأبنائها الذين مازالوا ينتظرونها أبداً.

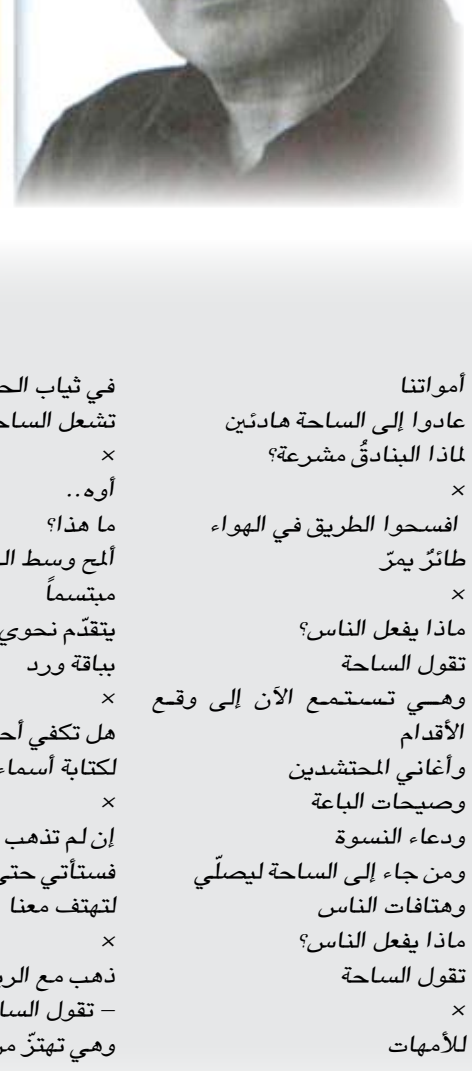

قصيدة إلى مصر

–١ ساحة التحرير..
ساحة القيامة
هذه الساحة
يدخلها الناس خيمة
الأطفال ملعباً
الصيارفة سوقاً
الجمال بادية
الخيول ساحة حرب
من يمسح الدم عن عنق الوردة؟
ويقول للنائم الجميل
"ألا تنهض!"؟
×
انظر
المصلّون
حين ينحنون
جباههم تلامسُ السماء
×
ذلك الضرير
القادمُ إلى الساحة
لا أحدَ يقودهُ
حتى عصاه
×
هلالٌ يأتي
حاملاً صليبهُ
صليبٌ يأتي
حاملاً هلالهُ
والساحة تمتدّ
×
في الساحة
ثمة بحر
وسفائن غرقى
ونوتيّ
يصرخ بي:
"هات يديك"
×
مصر!
مصر!
من أقصى الساحة
يأتي الصوت إليّ
×
أمواتنا
عادوا إلى الساحة هادئين
لماذا البنادقُ مشرعة؟
×
افسحوا الطريق في الهواء
طائرٌ يمرّ
×
ماذا يفعل الناس؟
تقول الساحة
وهي تستمع الآن إلى وقع الأقدام
وأغاني المحتشدين
وصيحات الباعة
ودعاء النسوة
ومن جاء إلى الساحة ليصلّي
وهتافات الناس
ماذا يفعل الناس؟
تقول الساحة
×
للأمهات
في ثياب الحداد
تشعل الساحة الشموع
×
أوه..
ما هذا؟
ألمح وسط الحشد يهوذا
مبتسماً
يتقدّم نحوي..
بباقة ورد
×
هل تكفي أحجار الساحة
لكتابة أسماء الناس؟
×
إن لم تذهب يا ريّس
فستأتي حتى القطط إلى الساحة
لتهتف معنا
×
ذهب مع الريح
– تقول الساحة–
وهي تهتزّ من الضحك